الفصل الرابع

- عقدة أوديب وذكاء الفرد الاجتماعي والوجداني
- الكذب والذكاء الاجتماعي والوجداني

عقدة أوديب – وذكاء الفرد الاجتماعي والوجداني

في أساطير الإغريق : كان أوديب طفلا لأحد الملوك فتكهن أحد المنجمين بأنه سيقتل أباه حين يكبر، فأصر الملك نبذ ابنه في العراء ، فلما كبر أوديب هذا التقي بأبية في إحدى رحلاته ولم يكن يعرفه، وتنازعا على أمر ما، فقتل أوديب أباه، ثم مضي حتى بلغ مدينته ، وتزوج ملكتها ، وهى أمه دون أن يعرفها .

ثم استعار فرويد هذا الاسم لهذه الأسطورة ، فأطلقه على مأساة شبيهه بما يعانيه الطفل الإنساني، إبان طفولته المبكرة ، في صلته بوالديه، سماها عقدة أوديب، وهي عقدة ذات خطر كبير في التحليل النفسي ، فهي ذات صله وثيقة بتكوين ضمير الطفل، وخلقة، كما أنها حجر الزاوية ونواة جميع الأمراض النفسية .

فالطفل خلال الأربع سنوات الأولي من حياته ، تكون علاقاته العاطفية والاجتماعية بوالديه قد أخذت تنمو وتتعلق ، فالطفل الذكر يحب والدية، ويزداد تعلقه بأمه وحبه لها ، كما تأخذ بوادر العزوف عن أبية، والإعراض عنه، يدب في نفسه، ويبدو في سلوكه ، والطفل يرفض أن يكون له شريك، وتأخذ ه الغيرة ممن ينافسه هذا الحب ،ويحقد عليه، ولكن هذا الحقد يولد في نفسه الخوف من أبيه ، كما يقترن في نفسه الشعور بالنقص ، والشعور بالذنب تجاه هذا المنافس القوي ،هذا الموقف الغريب الذي يمتزج فيه حب الأم والتعلق الشديد بها ، بالخوف من الأب والرغبة في استبعاده، "يعرف

بـالموقف الأوديبـي " هـذا الموقـف يتـألف مـن عواطـف ومشـاعر كريهـة غيـر مقبولة فتكبت هذه المشاعر .

فتتكـون عقـدة أوديـب ، فعقـدة أوديـب تنشـأ عـن رغبـة مكبوتـة لـدى الطفـل فـي الاسـتئثار بأمـه ، والاسـتحواذ عليهـا ، وكراهيـة، ورغبـة مكبوتـة فـي الـتخلص مـن الأب،غيـر أن خـوف الطفـل مـن أبيـه، ومـا يلاقيـه مـن تهديـد الأب له، أثناء تأديبه يغرى الطفل ، بأن يتنازل عن حبه وتعلقه بأمره.

ويـتقمص الابـن شخصـية أبيـة ومعـاييره الخلقيـة، ومثلـه ، ومـن هنـا يتكـون الضـمير فـي نفـس الطفـل ، تلـك السـلطة التـي تقـوم مقـام الوالـد فـي مراقبـة تصـرفاته، وسـلوكه، وتوجيهـه، ونقـده، وعلـى هـذا يكـون الضـمير خليفـة الوالـد، وريث عقدة أوديب، والتي تبدأ من السادسة عند الطفل.

ويتوقـف نجـاح الطفـل علـى تصـفية هـذه العقـدة ، علـى مـا لقيـه مـن قبـل ، مـن تربيـة سـليمة رشـيدة ،ومـن حسـن تصـرفات الوالـدين تجاهـه، قبـل عـدم التعـرض للحرمـان طـول فتـرة الرضـاعة ، وعـدم الفطـام المفـاجئ ،العنيـف ،ولـم نفـرض عليـه عمليـة ضـبط الإخـراج فـي عنـف ، وتعجيـل مثـل هـذا الطفـل، يتقبـل فـي يسـر وسـماحة مـا يفـرض عليـه مـن أوامـر ونـواهي ،فـإذا مـا اسـتقبل مرحلـة أوديـب كـان مرشـحا أن يجتازهـا بسـلام ،أمـا الطفـل المحـروم ، أو الـذي أسـرفت الأم فـي إشـباعه، فـلا يجتازهـا بسـلام ، وإذا لـم تحـل هـذه العقـدة سـلميا ، ولـم يـزل مـن نفـس الطفـل الخـوف والـبغض، والغيـرة مـن أبيـة ، وفـرط اعتمـاده علـى أمه ، وتعلقه بها، كانت هذه العقدة أساس المرض النفسي فيما بعد.

فكـل عصـابي لا يـزال متعلقـا تعلقـا شـديدا وشـاذاً بأمـة ، ولا يـزال يكـره أبـاه، وكـل سـلطة يخافهـا ، وقـد يـؤدى الامتنـاع عـن الـزواج ، أو يصـيبه العجـز

الجنسي إن تزوج ، أو يميل إلى التخنث، أو اللواط ،أو يتزوج امرأة تكبره في السن ، لتقارب أمه أو تشبهها ، أما عداؤه لأبيه ، فيبدو في صورة خصام وكره، مع من يميلون للسلطة كالرؤساء .

ويميل بعض علماء النفس، إلى تقسيم الأمراض النفسية العقلية إلى نوعين رئيسيين، تندرج تحتهما كل الأمراض النفسية والعقلية :

- أولا : الأمراض النفسية (العصبية) وهذه الأمراض ترجع إلى ، اضطراب في الشخصية ، تبدو في صورة أعراض جسمية ونفسية منها القلق، الوساوس ، الهواجس ،الأفكار المتسلطة ، المخاوف الشاذة ، التردد المفرط ، الشكوك ، الأفعال القهرية التي ترغم الإنسان إلى ارتكابها .

بالرغم من إرادته ، وهذه الأعراض تعطل حاسة من الحواس ، أو وجود شلل، دون أن يكون لهذا الشلل ، سبب جسمي أو عصبي .

هذه الأمراض النفسية يطلق عليها اسم الهستيريا "النيوراستانيا" القلق النفسي الوسواس ، وهذه الإمراض ترجع إلى :-

- صدمات انفعالية ، اضطرابات في العلاقات الإنسانية ،أحداث أليمة تعرض لها الفرد في طفولته المبكرة وليس لوجود تلف في المخ ، والجهاز العصبي .

النوع الثاني : الأمراض العقلية أو العصبية الذهنية وهذه الأمراض ترجع إلى اضطراب عضوي المنشأ ينجم عن تلف عضوي يصيب الجهاز العصبي ويبدو في صورة أعراض جسمية ونفسية

فقد ينشأ عن عطب وانحلال في المراكز العصبية والنسيج العصبي كالتهاب الأعصاب الذي يحدث كمضاعفة لمرض الزهري – البول السكري – أمراض سوء التغذية وأهمها البلاجرا

أو قد ينشأ عن عدوي ميكروبية تؤدى إلى التهاب المخ أو انفجار أو انسداد في شرايين المخ أو من أورام المخ أو إصابات خطيرة في الدماغ من الأمراض العصبية والشلل النصفي ، الصرع ، الحبسة الكلامية .

فالإنسان وحدة جسمية نفسية متفاعلة فاضطراب جانب منها يؤدى إلى اضطراب جانب آخر لذلك يقترن الشلل النصفي بالاكتئاب وكثير من حالات الصرع عنف وهياج وفقد الذاكرة .

أما في الالتهاب السحائي تعتري المريض أعراض نفسية قبل سرعة الغضب ، القلق ، التهور ، الاندفاعية العجز عن ضبط النفس

إن تنمية الذكاء لا يتم بالكتب وحدها بل إن التطور العاطفي يلعب دور "مهما " في تنمية المقدرة العقلية للأطفال وهذا ما أكده د.ستانلى غرينسبان الباحث في علم تطوير الأطفال بجامعة جورج واشنطن .

حيث يقول: " نحتاج حقيقةً إلى مفاهيم ثنائية الإدراك - من جهة – والعواطف من جهة أخرى مع ملاحظة إن العواطف هي الوقود الذي يسمو بالسلوك الاجتماعي ، كما إنها تدفع أي مستويات مختلفة من الذكاء .

ويذكر أيضاً أن الجينات الوراثية – تلعب دوراً في تحديد مستويات الذكاء وإن ذكاء الأطفال لا يتحدد في الحمض النووي " مخ" وبهدف النظر عن اختبارات تحديد الذكاء في العائلة فأنا حين أشاهد أطفالاً يتمتعون بالذكاء

ويتفاعلون مع المؤثرات العاطفية يمكنني أن أري أطفالاً أذكياء وأكفاء ، ولهذا أوصي بالتفاعل العاطفي المتبادل بين الآباء وأطفالهم أيضا تلعب الرضاعة الطبيعية من ثدي الأم دورا رئيسيا في تنمية دماغ الأطفال وهذا ما أكدته دراسة علمية نشرتها مجلة " الجمعية الطبية الأمريكية حيث ذكرت هذه الدراسة أن رضاعة الأطفال بصورة طبيعية لمدة تتراوح بين ٧إلى ٩أشهر يتمتعون بنسب ذكاء تفوق الأطفال الذين تم إرضاعهم لفترات قصيرة .

أيضا دراسة أخري أجرتها كلية الطب في جامعة هارفارد ١٩٩٩ أثبتت أن الموسيقي والرقص هما أفضل طريقة لتعليم الأطفال كيفية التفاعل النفسي والاجتماعي .

ويري بعض العلماء أن تعلم الأطفال الرضع لغة الإشارات قبل البدء في الكلام إشارة لذكاء الطفل

ويؤكد غيرينسبان " قوله " بأنك إذا قمت بمطالعة أحد الكتب مع أطفالك وفي سن مبكرة وأرشدته إلى كيفية الربط بين الصورة والكلمات وتفاعلت معهم بصورة عاطفية ومرحه فإنك يمكنك تحقيق أفضل النتائج .

فالأطفال الرضع يستطيعون تعلم لغات أجنبية وكمبيوتر في سن ستة إلى ثمانية عشرا شهرا هذا ما أكده دراسة آن جركن ، حيث ذكر أن الأطفال في هذا السن يتذكرون معلومات لغوية معينه مثل الفرد الكبير وأن الأطفال من أفضل الدارسين وان طفلا عمره سبعة أشهر يستطيع أن يتعلم اللغة الروسية ، ويكتشف الأطفال حتى التأنيث والتذكير في هذه اللغة في دقيقتين وتضيف أن الأطفال قادرون على تعميم القواعد اللغوية في لغتهم الأصلية فضلا عن اللغات الأجنبية وهذه الدراسة تمت في معملها حيث كانت تقوم

بتجديد أنواع المعلومات اللغوية التي يكتسبها الأطفال ويتم عن طريق قياس الفترة التي يستمر فيها الأطفال ينظرون إلى الضوء الساطع من مكان صدور صورة ما ، ويوضع الطفل داخل مقصورة لها ثلاث أضواء على اليمين واليسار وأمام الطفل ويصدر صوت من ماسوب خارج المقصورة أثناء فترة نظر الطفل إلى الضوء ، وهناك كاميرا فيديو داخل المقصورة حتى يستطيع الباحثون تسجيل توقيت تحريك رأس الطفل إلى الضوء إلى الكلمات والنهاية الصوتية التي يفضلها الطفل ، ويستخدمون المعمل في دراسة هذه اللغة الروسية لأن الأسماء في هذه اللغة لها تركيز وتأنيث ونهاية منطوقة تتغير بتغير النوع والعدد ويطبق الباحثون في هذه التجارب أصوات النوعية من الكلمات لم يسمعها الطفل من قبل

النوعيين هما :١- كلمه أساسية

٢- كلمه ذات نهاية صوتية بشكل صحيح

وبشكل كافي مثل اسم مذكر بنهاية مؤنث أو العكس فإذا نظر الطفل طويلا إلى الضوء خلال سماع الكلمة الصحيحة يعرف الباحثون انهم يقدمون به معلومة جديدة وليس تكرار نموذج سابق .

هدف هذه الاختبارات

أمرين هما : ١- أن الأطفال في هذا السن يعرفون لغتهم الأصلية

٢- الأجزاء التي يستطيع الأطفال تعلمها من لغة أخرى جديدة لا يعرفونها في وقت قصير .

استخدم مفهوم التكيف في المجال النفسي تحت مصطلح توافق Adjustment فالإنسان يتلاءم مع البيئة الطبيعية يستطيع أن يتلاءم مع الظروف الاجتماعية النفسية التي تحيط به والتي تتطلب منه باستمرار أن يقوم بمواءمات بينه وبينها ، ومن هنا يفسر السلوك الإنساني باعتبار عدة توافقات مع مطالب الحياة وضغوطها ، وهذه مطالب في أساسها اجتماعية نفسية في صورة علاقات متبادلة بين الفرد والآخرين وتؤثر في بدورها في التكوين البيولوجي للفرد .

وقد يكون التوافق ثمرة للكيف كما يرى (دسوقي) حيث ذكر أن التوافق ثمرة التكيف وسوء التوافق فشل أو عدم قابلية ملاءمة ما هو نفسي بما هو اجتماعي

وهذا التوافق لا يتم إلا من طريق الذكاء بصفة عامه والذكاء الاجتماعي بصفة خاصة وهذا ما أكده فؤاد البهي السيد ، والذي ذهب إلى أن التوافق أعم من التكيف ، فالتوافق يقتصر على النواحي النفسية والاجتماعية، أما التكيف فيختص بالنواحي الفسيولوجية.

وبذلك تصبح عملية تعبير الفرد لسلوك ليتسق مع غيرة وذلك باتباعه للعادات والتقاليد وخضوعه للالتزامات الاجتماعية عملية توافق وهذا يعتمد على الذكاء الاجتماعي أم عملية تعبير هدف العين وذلك باتساعها في الظلام وضيقها في الضوء الشديد عملية تكيف.

ولكن " كاتل "يفرق بين التوافق والتكيف على أساس أن التكيف يستخدم في معنى اجتماعي أي انسجام الفرد مع عالمه المحيط به ، بينما

يشير التوافق إلى حسن النظام الداخلي أي التحرر من الضغوط والصدامات النفسية والكبت

يرى بعض العلماء ومنهم شانيدز schneideis إلى أن الإنسان سئ التوافق هو الإنسان الذي يعاني من مشكلات جنسية والذي لا يستطيع تكوين أصدقاء والذي لا يستطيع أن يتحكم في مشاعر وصوابه ، أو الذي يشذ عن المعايير الاجتماعية للسلوك.

ويؤكد (ستوتstout) ذلك بقوله بأن السلوك غير المتوافق هو ذلك السلوك الذي يمنع الفرد بأخذ دوره ويتحمل مسؤولية حتى المجتمع الذي يعيش فيه فالفرد سيء التوافق هو فرد يتعرف بطريقة تبدو ضد ميوله ، وينمو بطريقة لها تأثير سيئ ، أي أنه فرد ليس لديه نوعان من الذكاء هما الذكاء الاجتماعي والوجداني .

إذن عقدة أوديب تلعب دوراً رئيساً في الذكاء الاجتماعي والوجداني للفرد.

الكذب والذكاء الاجتماعي والوجداني

الكذب كمفهوم هو الانحراف عن الصدق في القول والعمل والسلوك والقصد (النية) كمحاولة غير سوية وأسلوب اضطرابي لتغطية الأخطاء ونكران الذنوب نكتسبه من تفاعل عوامل عدة أسرية، مدرسية ، مجتمعية، إعلامية .. إلخ

إلا أن الكذب عند الأطفال يختلف في تصنيفاته وبعض مظاهره عنه لدى الكبار، فغالباً ما يدرك الأباء خطأ أن التفكير الخيالي والتفكير الخرافي عند الطفل بأنه نوع من الكذب ويؤنبونه على ذلك بل الأكثر من ذلك يصفونه بأنه كاذب ، وفي حقيقة الأمر ما ذلك التفكير إلا نوع من الذكاء الممتاز لدى الطفل ودلالة على التقدم في النمو العقلي أي أن الطفل ينمو عقلياً بشكل مثالي وهو في حاجة لنا لكي نفهم سلوكه وتفكيره لا أن نحبطه ونعيق ذكائه ، فالطفل عندما يتسع خياله وتتفتح قدراته الذهنية وخاصة في العمر (٣ – ٥) سنوات يختلط لديه الواقع بالخيال ويروي قصصاً خيالية باعتبارها أحداث واقعية دون أن يقصد الكذب أو تشويه الحقيقة (كما يتهمه خطأ وظلماً الكبار) فهو عندما يقول بأنه قتل الأسد أو أن خاله المسافر أتى أو أنه ذبح الدجاجة أو سلم على مذيع ما ، أو أنه قضى على أربعة لصوص .. فهو طفل ذكي وليس بطفل كاذب كذلك الحال في التفكير الخرافي الذي يكون نتيجة ضعف القدرة على التمييز بين الواقع والإدراك كأن يحاول الطفل سرد قصة خرافية بواقع موضوعي " مثلاً عندما يروي الطفل أنه انطلق مع " قرندايزر " أو أنه ذهب إلى الفضاء ، أو أنه رأى العفريت أو الغول ، أو أنه ذهب إلى مدينة بعيدة .. " وهذا التفكير هو أمر طبيعي بل هو في الاتجاه الإيجابي لذكاء الطفل ولنموه بشكل عام فإذا ما وصفناه بالكذب فإننا سنجرم في حق الطفل ونقف عائقاً في طريق ذكائه وندفعه نحو الانحراف واللاسواء .

ولعلني لا أبالغ إن قلت أن أول كذبة يدركها الطفل من أمه هي "اللاهاية" فيأخذ رضيعنا الوليد "اللاهاية" من يدي أمه ويضعها في فمه أملاً في الارتواء من الحليب .. ولكن لسوء حظه لن يأتي الحليب حتى ولو استمر في "مطمطة" اللاهاية طول العمر، وهو ما يعني إحباطاً شديداً يدركه الطفل "إحباط نفسي + جسدي" وأيضاً أول صورة مشوهة يدركها الطفل عن أمه فيقول في قرارة نفسه البريئة " أهل يعقل يا هذه الأم "المصنعة المنعة" ذات العرض والطول تخادعني "العين في العين" وبكل هذا الإجحاف والتسلط ..

كذلك الحال عندما تستقبل أمه ضيفة ما أو يستقبل أبيه ضيف ما بالحب والأحضان والكلام المعسول وبأطباق الحلوى والفواكه، "وبقصعة" "البازين" "والمكرونة" ثم ما أن يغلقا الباب خلف هذا الضيف حتى يكيلا له من الكلام السيئ والنميمة المستمرة ما تعجز عن حمله الجبال والسهول .. والطفل الوديع المتواجد في المكان هو الضحية الأولى لهذا السلوك فهو في حيرة من أمره ... لماذا أبي وأمي .. يتبدلان كالحرباء من حال إلى حال "سبحان مغير الأحوال" فهو أما أن يتشرب من والديه هذه السلوكيات ويبدأ خطواته المسرعة نحو الكذب وأما أن يكبت في داخله حسرة وخوفاً وألماً وبالتالي ... يركب صعوبات الطريق ...

لذلك فغياب القدوة الحسنة (من الآباء والأمهات والمدرسين، ووسائل الإعلام .. ورجال الدين..) والنفاق الاجتماعي وانهيار القيم الأخلاقية وطغيان المصالح المادية وفقدان الوازع الأخلاقي كلها عوامل تخلق أرضية خصبة لتعلم الكذب .

الأطفال التوحديون منعزلون و يميلون إلى عدم الإشتراك مع الآخرين و لا يحبون الإندماج في المحيط الإجتماعي .

وبناءً على ما سبق فالفرد الذي لا يتميز بالذكاء الاجتماعي يعتبر شخص شبه فصامي .

ويؤكد هذا ما ذكرته مدرسة التحليل النفسي في تفسيرها للفصام بأنه صراع مستمر بين الأنا الأعلى والهو مما يضعف سيطرة الأنا الأعلى على الشخصية ويضعف الأنا ويخلق صراعاً مستمراً بينه وبين العالم الخارجي ويؤدي إلى الانفصام عن الواقع مما يجعل المريض يمتص الطاقة الليبيدية للداخل بدلاً من توجيهها للخارج، وينكص للمراحل الجنسية الأولى في حياة الفرد ، حيث ينكص لأنماط التفكير الطفلي وينسحب إلى داخل نفسه إلى المستوى النرجسي ، ويتمركز حول ذاته ، ويتجنب العلاقات الشخصية الاجتماعية ، ويصبح انطوائياً ، ويفضل في التوافق مع البيئة الاجتماعية . ونستنتج من ذلك أنه إذا تم تدريب الطفل منذ طفولته على إقامة علاقات اجتماعية سليمة مع رفاقه وأصحابه واتساع مجاله الاجتماعي فإنه يؤدي ذلك إلى نمور مهارات الاتصال ا لاجتماعي والتي تعتبر الأساس للذكاء الاجتماعي . فهذا يؤدي إلى عدم انطوائية الطفل في الكبر وعدم انعزاله عن المجتمع و عدم إصابته بمرض الفصام.

ويرى السلوكيون ومنهم "وولمان" Wolman, 1965 أن زيادة الدافعية تؤدي إلى قوة الإستجابة وعدم مناسبتها وخطئها ، فالبعد عن الواقع الاجتماعي والاستغراق في الذات يجعل الفرد سجين داخل نفسه كما لو كان في جزيرة منعزلة تملؤها أوهامه.

كـل هـذا يـؤدي إلـى اضـطراب الاتصـال الاجتمـاعي واضـطراب العلاقـات الشخصـية وسـوء التوافـق الاجتمـاعي والأسـري وفقـدان الاهتمـام بالبيئـة وبالتـالي انعـدام المسـئولية الاجتماعيـة ، والتبلـد الانفعـالي واللامبـالاه ، وفقـدان التعلـق الانفعالي بالآخرين وبالتالي تدهور الشخصية .

والعـلاج هـو العنايـة بعمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والتطبيـع والانـدماج الاجتمـاعي ، والعنايـة بتكـوين مفهـوم الـذات الموجـب عنـد الفـرد ، وتوجيـه الطفـل منـذ الصـغر نحـو الأهـداف الواقعيـة التـي يمكـن تحقيقهـا ، والعنايـة بتحديـد فلسـفة واضـحة لحيـاة الطفـل منـذ ا لبدايـة ، وتدريبـه علـى تحمـل المسـئولية والقضاء على السلبية والعدوان لدى الفرد وتدريبه على اللعب .